فصلٌ
فى حرب البسوس بين بنى بكر وتغلب

قال مؤلفهُ كان كليب بن ربيعة قد استطال على العرب وبغى على قومه فصار يحمى عليهم المراعى ويجير الوحش فلا يصاد وكان قد حمى أرض العالية كما مر فى ترجمته فكان لا يدنو أحدٌ من حماهُ حتى ضرب بهِ المثل فيقال امنح من حمى كليب وكان لمرة بن ذهل عشرة أولاد منهم همام وهو أكبرهم وكان سيد بكر وفارسها بعد أبيه وعمرو وهو الملقب بحساس وكان فارس شيبان ومفتاح الفتنة العظمى بين بكر وتغلب ومنهم ثعلبة ونضلة والحارث وجند بوشيبان وذؤيب ونهشل وبجير وكانوا فرسان وائل وأشرافها وكانت الجليلة بنت مرَّة تحت كليب واختها ماوية بنت مرَّة تحت أخيه المهلهل وكانت دراهم ببطن شبيب مما بلى تهامة وكان كليب لا يمزال يطوف فى حماه فرأى فيه ذات يومٍ قنبرة على بيضٍ لها فلما رأته طارت فابتعد عنها كرمًا حتى عادت إلى بيضها وانشا يقول:

يـــا لـــكِ مـــن قنـــبرة بمعجـــرِ	خـلا لـكِ الجـوُّ فبيـضى واصـفري
ونقـــرى مـــا شـــئتِ أن تنقـــري	لا ترهبـــى خوفًـــا ولا تـــستنكري
فأنـت جـارى مـن صـروف الحـذرِ	إلى بلـــــوغ يومـــــك المقـــــدَّر

وكان رجلٌ من جرم يقال له سعد بن شمر بن قدامة قد نزل بأهلهِ وماله على جساس وأبيه وإخوتهِ آل مرَّة بن ذهل بن شيبان وكان من أخوال جساس فأقام مع الهالة أم جساس وأختها الهيلة ابنتى منقذ التميمى من سعد مناة بن تميم وكانت الهيلة تُلقب بالبسوس فلما نزل الجرمى بآل مرَّة جاورها وكان لهُ ناقة يقال لها سراب

فخرجت مع أبل جساس ترعى ف يحمى كليب وكان كليب لا يأذن فى دخول الحمى إلا لإبلى أولاد مرَّة لما بينهم من المصاهرة ولما طافت الناقة بالحمى وطئت عشِّ تلك القنبرة فشدخت ما فيه من البيض ووافق ذاك دخول كليب إلى الحمى فرأى ذلك ولم يعرف الناقة فنادى بجساس وسالهُ عن خبرها فأعلمهُ بها فقال كليبٌ أولىَ لها ثم أولى والله لقد هممت بقتلها فلا تَعُد هذه الناقة فى هذا الحمى أبدًا بعد اليوم فظنَّ جساس أنه قال ذلك ليخرج أبلهُ من الحمى فقال بالله لتعودَنَّ مرَّةً بعد مرَّةٍ ولا تضع أبلى رؤوسها إلا وهى معها قال كليب وأنصاب وابل لئن عادت لأَضَعَنَّ سهمى فى ضرعها وانشا يقول

إنـــى وربُ القمـــر المـــنيرِ والحجـــر الأســـود ذى الـــستورِ
لـــبن رعـــت فـــى البلـــد المحجـــورِ وأفزعـــت جـــارى بمـــن الطيـــورِ
لاهـــتكنَّ الـــضرع بـــالمطرورِ

فأجابه جساس يقول

إنـــى ورب الـــشاعر الغـــرورِ وباعـــث المـــوتى مـــن القبـــورِ
وعـــالم المكنـــون فـــى الـــضمير أن رمـــث منهـــا معقـــر الجـــزور
لأَثـــبنَّ وثبـــة المغـــير الـــذيبا وذى اللبـــدة الهـــصور
بـــصارمٍ ذى فـــنن مـــشهور

فانصرف كنيب إلى هلهِ مغضبًا حتى دخل على امرأته الجليلة أخت جساس فعرفت الغيظ فى وجههِ وقالت يا ابن العم ما أغاظك قال ويحك أترين أحدًا من العرب مانعًا منى جارًا قالت لا أعلم إلاَّ أن يكون العمَّ أو بنيهِ تعنى أباها واخونها فقال كليب:

قـــد قـــال والقـــول هـــزارٌ زاهـــقُ إلا لمـــن كانـــت لـــهُ حقـــائقُ

فاتصل قولهُ بجساس فاجبهُ يقول:

عنـــد الزحـــام تحمـــد الـــسوابقُ وفـــى الوعيـــد تعـــرف الحقـــائقُ
والنـــاس مـــنهم كـــاذبٌ وصـــادقُ

فلما بلغ قولهُ كليبًا خرج إلى الحمى مغضبًا لا يلوى على أحد ونبعهُ أخوهُ المهلهل وقد علم بما كان من أمره وأمر جساس فوعظهُ وعظم عليه الصهر والقرابة فاستشاط كليب وقال إنما أنت زير نساء والله لين قتلت أنى أخاف أن لا تطلب دمش فانشا المهلهل يقول

أخٌ وحـــريمٌ ســـيءٌ أن قطعتـــهُ وســـنّة عـــزم هـــدمها لـــك هـــادمُ
وقفـــت علـــى ثنـــتين إحـــداهما دمٌ وأرى بهـــا منـــا تحُـــزُّ الغلاصـــم
فمـــا أنـــت إلا بـــين هـــاتين غـــائص وكلتاهمـــا بحـــرٌ وذو الغـــى نـــادمُ
ول حمـــــيمٍ أو أخ ذى قرابـــــة لـــك اليـــوم حتـــى آخـــر الـــدهر لائـــم
فـــأخِرْ فـــإن الـــشرَّ يحـــسن آخـــرًا وقَـــدّمِ فـــإن الحـــرَّ للغـــيظ كـــاظمُ

ففكر كليبٌ فى امرءِ عند ذلك وعاد إلى أبياتهِ وخرجت الجليلة حتى دخلت على جساس ولامتهُ فى ما نعل فقال تبًا لك يا جليلة اتعذلينني فى منع جارى لن فعل ولم أقتلهُ فأمى مثل أمهِ وكانت أمّ كُليب أمَةً قالت إِذَن يسلمك قومك ويخذاك أبوك قال وإن خُذِلتُ قالت لاَّظنُّك شرَّ مولود فى وائلٍ قال نعم أن لم أمنع جارى فإن منعتهُ فخير مولودٍ من منع من كليب فذهبت مثلا فخرجت الجليلة مغضبةً وقالت تعس جساس فسألها كليب عن شأنها وأين خرجت فقالت خرجت لحاجتى فألحَّ عليها حتى أعلمتهُ واتصل بهِ قول جساس أن نعل ولم أقتلهُ فأمى مثل أمهِ فخرج إلى الحمى وترك قول المهلهل ورصد على الماءِ حتى وردت الإبل وكانت سراب ناقة البسوس قد عُقَلِت خوف الفتنة قفلا نرد الماء فلما مرّت بها ابل كليب عركت العقال وتصرَّعت فيهِ حتى حلتهُ وتبعث إبل كليبٍ ولم تكن إبلٌ ترد الماء مع إبل كليب حتى تصدر فسارت الناقة حتى اختلطت بالإبل ولا علم لأهلها بشيء فلما وردت الماء عرفها كليبٌ وظنَّ أن جساسًا أطلقها كيدًا لهُ فاتبعها لما صدرت وتعدت

الطريق حتى دخلت الحمى فأكلت من شجرة القنبرة التى أهلكت أولادها أول مرة عن عشٍ قد عملتهُ ثانيًا لأفراخ فيهِ فأنفَ كليبٌ عند ذلك وغضب ورماها بسهم معتمدًا فأصاب ضرعها وردَّت الناقة رأسها إلى مناخها مذعورةً يشخب ضرعها دمًا ولبنًا حتى انتهت إلى مكانها بفناءِ البسوس ولها عجيج ورغاءٌ شديدٌ واتبعها كليبٌ نظرهُ بعد أن رماها وانشا يقول

يـا طـيرةً بـين نبـات اخـضرِ ... جـاءت عليهـا ناقـةٌ بمنكـرِ

أنـكِ فـى حمـى كليـب الأزهـرِ ... حميتـه مـن مـذحجٍ وحمـيرِ

فكيـف لا أمنعـهُ مـن معـشري

ولما سمعت البسوس عجيج الناقة طرحت خمارها وأقبلت إليها مسرعةً وإذا السهم معتدلٌ فى ضرعها وطرفاهُ بارزان من جانبيه وعيناها تبتدران دموعًا وأخلافها تشخب دمًا ولبنًا فصكت وجهها وصاحت وأجوار جساس وأجوار همام وأجوار مرَّة وأجوار بنى ذهل بن شيبان فابتدرت البها رجال الحى وأقبل جارها الجرمى صاحب الناقة ورأى ما حلَّ بها فصاح بالويل والثبور وكان قد أشرك البسوس فيها وأقبل جساس على فرسِه فقال ما دهاكِ يا خالة قالت هذا الباغى الذى حمى عليكم الماء والكلاء وسلمكم الخسف عقر سراب وقلدكم بها قلايد الجوارى لا ينتثر نظامها ولا ينقص تمامها فم جعلت تعنِّف بنى مرة وتقول.

لعمـرى لـو أصـبحت فـى دار منقـرِ ... لمـا ضِـمَ سـعدٌ وهـو جـارٌ لا بيـاتي

ولكننـى أصـبحت فـى دار غربـةٍ ... متى بعدُ فيها الذيب بعدُ على شاتي

فياسـعدُ لا تغـرر بنفـسك ارتحـل ... فإنـك فـى قـومٍ عـن الجـار أمـوات

ودون اذوادى إليـــك فـــإنني ... ءاذرةٌ أن يغـــدروا بينيَّـــاتي

وسـر نحـو جـرمٍ إن جرمًـا أعـزَّةٌ ... ولا تـكُ فينـا لاهيًـا بـين نـسوات

ولما انشدت البسوس هذه الأبيات أوغرت صدور القوم وكانت العرب تسمى أبياتها هذه بالمورثبات وأَنف لذلك جساسٌ وإخوتهُ وازدادوا غضبًا وحميَّةً وأقبل

جساس على خالتهِ وسكن روعها وقال أقصرى يا خالتاهُ فسيقتل غدًا جملٌ أعظم من ناقتكِ فسكنت وكان لكليب بعيرٌ من كرام الإبل يقال له عليَّان فلما بلغهُ قول جساس ظنَّ أنهُ يريد أن يعقر ذلك البعير فقال ما يتمنى جساسٌ عليان ودون عقرهِ خرد القناد فى الليلة الظلماء ولما ماتت ناقة الجرمى انشا يقول:

جساسُ أين العهد والولاءُ ... جساسُ من شيمتك الوفاءُ
ليس انتهار الجار والجلاءُ ... كمنعهِ عمًّا به يساءُ
تبًّا لمن قالَ هما سواءُ

فقام جساس إلى خالتهِ وجارها واقتطع لهما من أبلهِ قطيعًا يرضيهما وكان كليب قد استطال لما عقر الناقة وانشا يقول فى ذلك:

ستعلم آل مرَّة حين اضحت ... بأن حماى ليس بمستباحِ
وإن لقاح جارهِم ستغدو ... على الأقوام غدوت كالرواح
وتضحمى بينهم لحمًا عبيطا ... يقسمهُ المقسمِ بالقداح
وظلوا أننى بالخير أولى ... وأنى كنت أولى بالنجاح
إذا عجَّت وقد جاشت عقيرًا ... تبيَّنتِ المراضُ من الصحاح
وما يسرنى اليدين إذا أضرَّت ... بها اليُمنَى بمدركة الفلاح
بنى ذهل بن شيبان خذوها ... فما فى ضربتيها من جناح

فلما بلغ جساسًا قول كليب انشا يقول

إنما جارى لعمرى ... فاعلموا أدنى عيالي
وأرى للجار حقًّا ... كيمينى من شمالي
وأرى ناقة جاري ... فأعلموا مثلَ جمالي
إنما ناقة جاري ... فى جوارى وظلالي

أن للجـــــــار علينـــــــا دفـــــع ضـــــيمٍ بـــــالعوالي
فـــــأقِلّى اللـــــومَ مهلًـــــا دون عـــــرض الجـــــار مـــــالي
ســـــأُ وءَدِّى حـــــقَّ جـــــاري ويـــــدى رهـــــنُ فعـــــالي
أو أرى المـــــوتَ فيبقـــــى لومـــــهُ عنـــــد رجـــــالي

وأقام جساس بعد ذلك بتوقع خروج كليب إلى الحمى حتى بلغهُ أنهُ قد ركب إليهِ فخر فى طلبهِ وتبعهُ عمرو بن الحرث لينهاه عن التعرض لكليب فركض جساس وعمرٌو فى أثره حتى دنا من كليب وقد دخل الحمى فسمع كليب وقع الفرسين وكان لا يلتفت إلى أقلَّ من أربعين فارسًا لجراءتهِ ولا يبالى بما دون ذلك فاقتحمهُ جساس وعمرٌ ويناشدهُ الله أن لا يفعل فلم يسمع له وعرف كليبٌ هجوم جساس فقال يا ابن عمى قد علمت ما أليتُ بهِ على نفسى فإن كنت من رجالى فأتنى من قدمى فقال جساس وددت أن اقتلك ولا أراك مدبرًا فكيف مقبلًا ثم وضع سنانهُ فى صلبهِ فصرعه ووقع كليب مفحص الأرض مرجله ونادى يا جساس اغثنى بشربة ماءِ قبل الموت قال هبات تجاوزت شيئًا والأحصِّ يريد منهلين كانا لهم من الماء فذهب قوله مثلًا وأراد عمرو بن الحرث أن يسقى كليبًا فمنعهُ جساسٌ ثم وقف جساسٌ على رأس كليب وانشا يقول

اجارنـــا تبغـــى كليـــب ســـفاهةً فأذهـــب بهـــا نجـــلاء مـــن جـــساس
قـد رمـت أمـرًا كنـت تـضعف دونـهُ صـعب المراقـى ذاهبًـا فـى النـاس
فـــسقيت كاسًـــا للمهنيِّـــة مـــرَّة فأشـرب هـديت مـن المنـون بكـاس
ولـنحنُ اصـبر فـى المـواطن واللقـا فـى كـل يـوم حفيظـة ومـراس
نجمـى الـذمار فـلا يـرام جنابنـا ونـذبُّ عنـهُ ذوايـب الابـلاس
اعقـرت ناقـة جارنـا وزعمـت أن تبقـى لهـا بحافـةِ ومكـاس
وسـنان رمحـى كالـشهاب أديـره بيـدى أغـرَّ مهـذَّبِ ذى بـاس
ارويتـهُ منـك الغـداة بطعنـة مـن بعـد طـول تجهـم وعبـاس

وانصرف جساس وابن عمهِ عمرو بن الحرث عن كليب وتركاهُ مجدَّلاَ يجود بنفسهِ وأقبل الرعاة بعد ذلك فكانوا كلما نظروا كليبًا على تلك الحال يهربون عنه وكليب يشير إليهم بيده أن يسقوه فلم يسقهِ أحدٌ منهم حتى مات وكان ذلك سنة أربعماية وتسعين للمسيح هذا وأن جساسًا لما انصرف هو وابن عمهِ عمرو بن الحرث إلى أهلهما يركضان كان مرَّة بن ذهل أبو جساس فى نادى قومِه نظر إلى جساس يركض وقد بدت ركبتاهُ وكان فيهما بياضٌ من أثر السرج فقال لمن حوله أن لهذا الفارس شأنًا وإنى لأظنهُ جساسًا فإن يكن كذلك فقد جاءكم بالداهية العظمى التى تذلُّ لها رقاب وليل قالوا من أين عرفت ذلك قال أراه قد بدت ركبتاه ولم يفعلها منذ ركب الخيل فلما انتهى إليهم قال أبوهُ ما وراءَك يا جساس قال شرٌّ عظيمٌ والله لقد طعنت اليوم طعنةَ ترقص لها عجايز وائل قال وما هى لأمّك الويل قتلت كليبًا قال أى وأنصاب وائل واى قتل قال إذن نسلمك بجريرتك ونريق دمك فى صلاح العشيرة لا ناقتى فيها ولا جملى ولا أنا منك ولا أنت منى والله لبيئسَ ما فعلت فرَّقت جماعتك وأطلت حربها وقتلت سيدها ورئسها فى شارفٍ من الإبل والله لا تجتمع وابل بعدها أبدًا ولا يقوم لها عمادٌ فى العرب فقال لهُ قومهُ لا تقل هذا ولا تفعل فيخذلوه وأياك فامسك مرَّة وغمس يده مع ابنهِ فى الحرب واستعدَّ لها وانشا جساس يقول:

تأهَّب مثل أهبة ذى كفاحِ ... فإن الأمر جلَّ عن التلاحى

وإنى قد جنيت عليك حربًا ... تغصُّ الشيخ بالماءِ الفراحِ

مذكرةٌ متى ما تصح منها ... تشبَّ لها بأخرى غير صاح

تسعر نارها وهجًا وجاءَت ... إذا خمدت كنيران الفصاح

وما تنفكُ نايحةٌ تعزّي ... لما نَدَبت وتعلن بالنواح

سوى كلبٍ عوى بطن قاعٍ ... ليمنع حمية القاع المباح

فلما أن راينا واستبنا ... عقاب البغى رافعة الجناح

صرفت إليهِ نحسًا يوم سوءٍ ... له كأسٌ من الموت المُتَاح

تثكَيــل دانيــات البغــى قومًــا ... وتــدعو آخــرين إلى الــصلاح
ذَرينــى قــد طربــتُ وحــانَ مــني ... طــراد الخيــل عارضــة الرمــاح
ومــا لى همَّــةٌ أرجــو أخاهــا ... ســوى الخطّــى والفــرس الوقــاح

فأجابهُ أبو مرة بن ذهل يقول:

لــئن تــكُ يــا بنــى جنيــت حربًــا ... فــلا وكــلٌ ولا رثّ الــسلاح
ولكنــى إلى العــلاَّت أجــرى ... إلى المــوت المحــيط مــع الــصباح
وإنــى حــين تــشتجر العــوالي ... أعيــد الــرمح فــى أثــر الجــراح
شــديد البــأس لــيس بــذى عيــاء ... ولكنــى أبــوهُ إلى الفــلاح
ســألبس ثوبهــا وأذبُ عنهــا ... بــأطراف العــوالى والــصفاح
فمــا يبقــى لعزَّتــه ذليــلٌ ... فيمنعــهُ مــن القــدَر المُتَــأح
وأحمــل مــن حيــوة الــذل مــوتٌ ... وبعــض العــار لا يمحــوهُ مــاح

ثم قال مرَّة لبنيهِ اظعنوا بنا عن مجاورة القوم حتى ننظر ما يصنعون فظعنوا وكان همام بن مرَّة أخنو جساس والمهلهل بن ربيعة أخو كليب متنادين متصاحبين على اللهو والشراب لا يكتم أحدهما عن صاحبهِ شيًا ولا تطيب نفسهُ بالإنفراد عنهُ فلما طعن مرَّة بأهلهِ أرسل إلى ابنه همام فرسهِ مع الجارية وأمرهُ أن يظعن ويلحق أهلهُ فلما انتهت الجارية بالفرس إليهم وهما معتزلان فى جانب الحى وثب همام إليها وقال ما دهاكِ قالت شرٌّ طويلٌ قتل جساس كليبًا وقد ظعن أبوك واخوتك وأرسلوا إليك الفرس لتحلق بهم فأخذ همام الفرس وربطه إلى خيمتهِ ورجع إلى المهلهل فقال المهلهل ما شأن الجارية والفرس وما بالك متغيرًا قال أشرب ودع عنك الباطل قال وما ذلك قال زعمت أن جساسًا قتل كليبًا أخاك فضحك وقال يد جساس أقصر من ذلك ولكن اليوم خمرٌ وغدًا أمرٌ فذهبت مثلا ثم أقبلا على شرابهما فجعل مهلهل يشرب شرب الآمن وهمام يشرب شرب الخايف فلما سكر المهلهل ركب همام ولحق بأهلهِ فى اليمن وشاع قتل كليبٍ فى الحى وقامت عليه النوايح وخرجت العوانق من

الخدور وصكت عليه الوجوه وشقت الجنوب ورجع المهلهل بن ربيعة إلى قومهِ سكران وهم يعقرون خيولهم ويكسرون رماحهم وسيوفهم فقال ويحكم ما الذى دهاكم فلما أخبروهُ الخبر قال لقد ذهبتم شرَّ مذهبِ اتعقرون خيلكم حين احتجتم إليها وتكسرون سلاحكم حين افتقرتم إليه فانتهوا عن ذلك ورجع إلى النساء فنهاهنَّ عن البكاء وقال استبقين للبكاءِ عيونًا تبكى إلى آخر الأبد فظنَّ قومه أن ذلك على وجه السكر لأنهُ لم يكن يُعَرف بالشجاعة فى الحرب وكان كليب قد كفاهُ الحروب والغزوات وكان يسميهِ زير النساءِ أى جليسهنَّ لأنه كان صاحب لهوٍ ونساء وكان أصبح أهل زمانهِ وجهًا وأفصحهم لسانًا وأرقهم سُعرًا وحديثًا وبلغ الخبر الحارث بن عباد وكان من أشدّ العرب بأسًا ونجدةً فقال لا نقاتى فيها ولا جملى واعتزل بقومهِ ورجع المهلهل يومه إلى شرابهِ وهو يقول:

دعينى فما فى اليوم مصحى لشاربٍ ... ولا فى عدٍ ما أقرب اليوم من غد
دعينى فأنى فى سمارير سكرةٍ ... بها جلَّ همَّى واستبان تجلدي
فإن يطلع الصبح المنير فإننى ... سأغدو الهوَ بنا غير وإن مفرّد
وأصبح بكرًا غارةً صيلميَّةً ... ينال لظاها كل شيخٍ وامرد

ولما ناحت النساء على كليب وخمشن الوجوه ونشرن الشعور خرجت البهنَّ الجليلة بنت مرَّة ارمأة كليب تبكى معهنَّ فقلن لها ابعدى منا فإنك شامتة وقد حرضتِ أخاكِ على قتل سيدنا فخرجت حتى لحقت بأهلها وانشأت تقول:

يا ابنة الأقوام إن لمتِ فلا ... تعجلى باللوم حتى تسألي
فإذا أنتِ تبيَّنتِ التي ... عندها اللوم فلومى وأعذلي
جلَّ عندى فعل جساس بنا ... غمَّةٌ المدهر ليست تنجلي
فعلُ جساسٍ وما جاءَ بهِ ... قاطعٌ ظهرى ومدنٍ أجلي
يا قتيلًا هدم الدهرُ بهِ ... سقف بينى جميعًا من على
هدم البيت الذى استحدثتهُ ... وبدا فى هدم بيتى الأول

ولما أصبح المهلهل غدا إلى أخيهِ فدفنهُ وقام على قبرهِ يرثيهِ ويقول

أهـــاج قـــذاءَ عينـــى الأَذِكـــارُ ... هـــدوًّا فالـــدموع لهـــا انحـــدارُ
وصـــار الليـــل مـــشتملًا علينـــا ... كـــانَّ الليـــل لـــيس لـــهُ نهـــار
أرقـــت وناســـت الـــشعراءُ عـــني ... والمبـــاقين بعـــدُ بنـــا اعتبـــار
وبـــتُ أراقـــب الجـــوزاءَ حتـــى ... تقـــارب مـــن أوايلـــها انحـــدار
أصـــرّف مقلتـــى فـــى أثـــر قـــومٍ ... تباينـــت الـــبلاد بهـــم فغـــاروا
وأبكـــى والنجـــوم مطلَّعـــاتٌ ... إلى أن تحـــوِ÷ا عنـــى البحـــار
علـى مـن لـو نعيـتُ وكـان حيًـا ... لقـــاد الخيـــل بحجبهـــا الغبـــار
دعوتـك يـا كليـبُ فلـم تجـبني ... وكيـــف يجيبنـــى البلـــد القفـــار
أجبنـــى يـــا كليـــب خـــلاك ذمّ ... ضـــنينات النفـــوس لهـــا مـــدار
اجبنـــى يـــا كليـــب خـــلاك ذمٌّ ... لقـــد فجعـــت بفارســـها نـــزار
ســقاك الغيــث أنــك كنــت غيثًــا ... ويـــسرًا حـــين يلـــتمس اليـــسار
أبـــت عينـــاى بعـــدك أن تكفـــأ ... كـــانَّ قِـــذَى القتـــاد لهـــا شـــفارُ
وإنـــك كنـــت تحلـــم عـــن رجـــالٍ ... وتعفـــو عـــنهُمُ ولـــك اقتـــدار
وتمنـــع أن يـــسهمُ لـــسانٌ ... مخافـــة مـــن بجـــير ولا بحـــار
وكنـــت أعـــدُّ قربـــى منـــك ربحًـــا ... إذا مـــا عـــدَّت الـــريح التجـــار
فـــلا تبعـــد فكـــلٌّ ســـوف يلقـــى ... شـــعوبًا يـــستدير بهـــا المـــدار
يعـــيش المـــرءُ عنـــد بنـــى أبيـــهِ ... ويوشـــك أن يـــصير بحيـــث صـــاروا
أرى طـــول الحيـــوة وقـــد تـــولى ... كمـــا قـــد يـــسلب الـــشيءُ المعـــار
كـــأنى إذ نعـــى النـــاعى كليبًـــا ... تطـــاير بـــين جنبـــى الـــشرار
فـــدرت وقـــد غـــشى بـــصرى عليـــهِ ... كمـــا دارت بـــشاربها العقـــار

سألت الحى اين دفنتموهُ ... فقالوا لى بسفح الحى دار
فسرت إليهِ من بلدى حثيثًا ... وطار النوم وامتنع القرار
وحادت ناقتى عن ظلَّ فبرٍ ... ثوى فيهِ المكرم والفخار
لدى أوطان أرَوَع لم يشنهُ ... ولم يحدث لهُ فى الناس عار
ذُكِرتَ نخفت أيامًا طوالًا ... يخالطهنَّ آفاتٌ كبار
أتغدو يا كليب معى إذا ما ... جبان القوم انجاه الفرار
أتغدو يا كليب معى إذا ما ... فسيل القوم شطَّ بهِ المزار
أتغدو يا كليب معى إذا ما ... حلوق القوم مشحذها الشفار
أقول لتغلبٍ والعزّ فيها ... اثيروها لذلكم انتصار
تتابع اخوتى ومضوا لأمرٍ ... عليه تتابع القوم الحسار
خذْ العهد الأكيد على عمري ... بتركى كلَّ ما حَوَتِ الديار
وهجرى الغانيات وشرب كأسٍ ... ولبس جبَّةً لا تستعار
ولست يخالع درعى وسيفي ... إلى أن يخلع الليل النهار
وإلاَّ أن تبيد سراة بكرٍ ... فلا يبقى لها أبدًا إثار

فأجابهُ جساس بن مرة يقول:

ألا أبلغ مهلهل ما لدينا ... فادمعنا كادمعيهِ غزارُ
بكينا وايل الباغى علينا ... وشرَّ العيش ما فيهِ غيارُ
ونحن مع المنايا كلُّ يومٍ ... ولا ينجى من الموت الفرارُ
وكلٌّ قد لقى ما قد لقينا ... وكلٌّ ليس منهُ لهُ اصطبارُ

وقال المهلهل يرثى أخاهُ أيضًا من أبياتٍ:

كُليبٌ لا خير فى الدنيا ومن فيها ... إن أنت خلَّيتها فى من يخليها

كليـــب أى فتـــى عـــزٍّ ومكرمـــةٍ ... تحـت الـصفاة التـى يعلـوك سـانيها

نعـى النعـاة كليبًـا لى فقلـت لهـم ... مادت بنا الأرض أم مادت رواسيها

ليت السماءَ على من تحتها وقعت ... وحالـت الأرض فأنجابـت بمـن فيهـا

النـاحر الكـوم مـا ينفـكُّ يطعمهـا ... والواهـب المئنـة الحمـرا براعيهـا

الحلـم والجـود كانـا مـن طبايعـهِ ... مـا كـل آلائِـه يـا قـوم نخـصبها

أضحت منازل بالسلاَّن قد درست ... تبكـى كليبًـا ولم تفـزع أقاصـيها

قـد كـان يـصحبها شـعواءَ مـشعلةً ... تحـت العجاجـة معقـودًا نواصـيها

مـن خيـل تغلـب مـا تلقـى اسـنتها ... ألا وقـد خـضبتها مـن أعاديهـا

كليـب أى فتـى زيـنٍ ومكرمـةٍ ... تقـود خيلًـا إلى خيـلٍ تلاقيهـا

تكـون أولهـا فـى حـين كرتهـا ... وأنـت بـالكرّ يـوم الكـرّ حاميهـا

حتـى تكـسر شـزرًا فـى نحـورهمِ ... زرق الأسـنة إذ تـروى صـواديها

امسمت وقد أوحشت جرد بلقعة ... للـوحش منهـا مقيـلٌ فـى مراعيهـا

يتفـرن عـن أمّ هامـات الرجـال بهـا ... والحـرب يفـترس الأقـران صـاليها

يـارُبَّ يـومٍ يكـون النـاس فـى رهـجٍ ... بـهِ جعلـت علـى نفـسى مكاويهـا

مـستقدمًا غصـصًا للحـرب مقتحمًـا ... نـارًا اهيجهـا حينًـا واطفيهـا

لا أصـلح الله منـا مـن يـصالحكم ... حتـى يـصالح ذيـب المعـز راعيهـا

فأجابهُ جساس بن مرَّة يقول:

أبلـغ مهلـهل عـن بكـرٍ مغلغلـةً ... منتـك نفـسك مـن غـى أمانيهـا

تبكـى كليبًـا وقـد شـالت نعامتـهُ ... حقًـا وتـضمر أشـياءً ترجّيهـا

فأصبر لبكر فإن الحرب قد لقحت ... وعـزّ نفـسك عمـن لا يواليهـا

فقـد قتلنـا كليبًـا لم نبـالِ بـهِ ... بنـاب جـارٍ ودون القتـل يكفيهـا

نحمى الذمار ونحمى كل أرملةٍ حقًا وندفع عنها من يعاديها

وقال المهلهل يرثى أخاهُ أيضًا

إن تحت الأحجار حزمًا وعزمًا وقتيلًا من الأراقم كهلا
قتلتهُ ذهلٌ فلست براضٍ أو نبيد الحيين قيسًا وذهلا
ويطير الحريق منا شرارًا فينال الشرار بكرًا وعجلا
قد قبلنا بهِ ولا ثار فيهِ أو تعمَّ السيوف شيبان قتلا
ذهب الصلح أو تردُوا كليبًا أو تحلوا على الحكومة حلاً
ذهب الصلح أو تردُوا كليبًا أو أذِيقى الغداة شيبان ثكلا
ذهب الصلح أو تردُوا كليبًا أو تنال العداة هونا وذلاً
ذهب الصلح أو تردُوا كليبًا أو تذوقوا الوبال وردًا ونهلا
ذهب الصلح أو تردُوا كليبًا أو تميلوا عن الحلايل عزلا
أو أرى القتل قد تقاضى رجلًا لم يميلوا عن السفاهة جهلا
إن تحت الاحجار والترب منهُ لدفينًا علا علاءَ وجلًا
عزَّ والله يا كليب علينا أن ترى هامتى دهانًا وحكلًا

وما زال المهلهل يبكى أخاهُ ويندبهُ ويرثيهِ بالأشعار ولا يفعل شيئًا سوى الوعيد فى أشعارهِ حتى يئس قومه منهُ وقالوا أنهُ زير النساءِ وسخرت منه بكر واستحقروهُ وقالوا إنما المهلهل نابحةٌ ليس عندهُ خيرٌ ولا شرٌّ وهمَّ آل مرَّة بالرجوع إلى الحمى وبلغ المهلهل ذلك فانتبه للحرب وشمَّر ذارعيهِ وتوسط نادى قوميه وإلى على نفسهِ أن لا يقرب النساءِ ولا يشمَّ الطيب ولا يشرب الخمر حتى يقتل بكل عضوٍ من كليب رجلًا من بنى بكر بن وايل فقال له أكابر قومهِ أننا نرى أن تعجل بالحرب حتى نُعذَر إلى إخواننا فبالله ما تجدع بحرب قومك إلا أنفك ولا تقطع إلا كفك فقال جدَعهُ الله إننا وقطعها كفًا والله لا تحدثت نساءُ تغلب أنى أكلت لكليبٍ ثمنًا

ولا أخذت له دِيّةً فقالوا له لابد أن تغضَّ طرفك وتخفض جناك لنا ولهم فكره المهلهل أن يخالفهم فيغضبوا عليهِ وقال دونكم ما أردتم فانطلقوا فى جماعة من أشراف تغلب حتى دخلوا على مرة بن ذهل وجماعة قومِه وأولادهِ فقالوا يا قوم قد جنيتم أمرًا عظيمًا وقتلتم رئسنا ورئسكم فى ناب من الإبل وقطعتم الرحم والحرمة بيننا وبينكم ونحن نكره العجلة عليكم دون الأعذار وإننا نعرض عليكم إحدى ثلث لكم فيها مخرجٌ ولنا مرضاةٌ قال مرة وما هى قالوا تدفعون إلينا جساسًا قاتل كليب فنقتلهُ بهِ أو تدفعون إلينا أخاهُ همامًا فإنهُ ندٌ لكليب أو تُقيدنا أنت من نفسك يأمرَّة فإنك رضى للقوم فقال لهم مرَّة أما جساسٌ فغلامٌ مايقٌ طعن طعنة ثم ركب فرسهُ هاربًا فوالله ما أدرى أى البلاد أنطوت عليه وأما همامٌ فحاله ما قد علمتم وهو أبو عشرة وأخو عشرة وعمٌّ عشرة وخال عشرة فلا تقيدونهُ بجريرة غيرهِ ولو اردت أن أقيدهُ كرهوا ذلك ومنعونى ولو قتلها هروا فى وجهى هرير الكلاب النوابح وإما أنا فوالله ما هو إلاَّ أن تجول الخيل جولةً فأكون أول قتيلٍ لكبرى وضعفى ولكنى أعرض عليكم غير هذا قوالوا وما ذلك قال أعطيكم ألف ناقةٍ سود المقل تضمنها لكم بكر أبنة وائل وإلاَّ فهؤلاء بنى فاقتلوا أيَّهم شئتم فتال التغلبيون والله ما جينا نساومكم بكليب ولا نطلب منكم ثمنهُ أما بنوك هؤلاء فبنو عمنا ولا نرضى بكليب جميعهم ولا نطلب الأمثلهُ أو دونهُ بقليل ثم انصرفوا عنه وقد أيقنوا بالحرب والهلكة وأخبروا المهلهل بذلك فقال والله ما كان كليب يجزور نأكل لهُ ثمنًا وتعاظمت الأمور بين الحيين وادن بعضهم بعضًا بالحرب وغضبت قبايل ربيعة لقتل كليب وراوا أن بنى شيبان قد ظلموهم إذ قتلوهُ فى شارفٍ من الإبل فظعنت النمر بن قاسط وعقيل بن قاسط حتى انضموا إلى تغلب فصاروا يدًا واحدة على بنى شيبان وأعتزلت عن حرب التغلبيين قبايل بكر منها يشكر وعجل وقيس بن ثعلبة ورأسها الحارث بن عباد بن ضبيعة فارس النعامة وكان فارس ربيعة وشاعرها فى زمانهِ وكان من سجاعتهِ إذا دخل بين الصفوف وتمنّى قومهُ فأرسا من الأعداءِ حمل عليهِ فلم يعد حتى يلتيهم بهِ فاعتزل الحارث فى من أطاعهُ من قبايل بكر ونزع سنان رمحِ ووتر قوسهِ ولما اعتزلت هذه القبايل عن الحرب

التتهم شيبان تستنصرهم فقالوا لهم يا بنى شيبان ظلمتم قومكم وقتلتم سيدكم وهدمتم عزكم ونزعتم ملككم فوالله لا نساعدكم فانصرفوا خايبين ولم يحارب أحدٌ منهم مع شيبا حتى أسرف المهلهل فى القتل وكان منهُ ما كان ثم أن المهلهل بعد ذلك لبس لامتهِ من الدرع والبيضة العادية والجوشن وإلى على نفسهِ لا ينزع البيضة عن رأسهِ والدرع عن جسدهِ حتى يبلغ ما يشتهيه أو يموت فيلحق بكليب أخيه ثم رتب الجيوش والمواكب وأغار إلى القتال فى رجالِ كالسلاهب أو كالرماح الكواعب فالتقتهُ شيبان فى مكان يقال له الذنايب واقتتلوا قتالًا شديدًا فى تلك السباسب حتى زهقت النفوس والأرواح ونثرت الأعناق بأيدى الصفاح واهتزت الأرض من ركض الخيل فى تلك البطاح وما زالوا يقتتلون من الصباح إلى غروب الشمس فانهزمت بنو شيبان وكان قد قتل منهم نحو ألفين نفس واشتهر المهلهل فى ذلك اليوم بالشجاعة والبأس ووقعت هيبته فى قلوب البكريين وباقى الناس وقال فى ذلك:

مَـــن مبلـــغٌ بكـــرًا وإل أبـــيهمِ ... عنـــى مغلغلـــة الـــرديء الأنعـــسِ

وقـــصيدةً شـــعواءَ بـــاقٍ نورهـــا ... تبلـــى الجبـــال وإثرهـــا لم يطمـــس

أكليـــبُ أن النـــار بعـــدك أخـــدمت ... ونـــسيت بعـــدك طيبـــات المجلـــس

أكليـــب مـــن يحمـــى العـــشيرة كلـــها ... أو من بكر على الخميس الأَشوس

مـــن للأرامـــل واليتـــامى والحمـــى ... والـسيف والـرمح الـدقيق الأملـس

ولقـد شـفيت الـنفس مـن سـرواتهم ... بالـسيف فـى يـوم الـذنيب الأغـبس

إن القبايـــل أضـــرمت مـــن جمعنـــا ... يـــوم الـــذنايب حـــرَّ مـــوتٍ أحمـــس

فـالأنس قـد ذلَّـت لنـا وتقاصـرت ... والجـنُّ مـن وقـع الحديـد الملـبس

ثم أغار المهلهل ثانية فكانت بينهم وقعةٌ بجانب اليمن أدار بها رحى الموت على بنى ذهل بن شيبان وقتل فرسانهم وأهلك ساداتهم وشجعانهم ثم كثرت بينهم الفتن والمخاصمات والوقايع والغارات واشتعلت نار الحرب وكثر بينهم القتل

والنهب حتى التقوا يوم عُنيزة فدنا بعضهم من بعض وقد تخالطت الصفوف واشتبك الجمعان فتجالدوا بالسيوف وبرز مهلهل يهدر كالأسد الهصور ويقول واكليباه قتيل الجزور ثم حمل على مرة بن ذهل وضرب هامتهُ بالسيف فنفذ السيف من البيضة إلى الراص وصرعهُ قتيلًا وحملت أولادهُ دونهُ فقتل منهم ثلثة وأنهزم عنه همام وجساس ثم أغارت بنو تغلب فالتقوا فى واردات وكان مقدم النغلبين ناشرة بن أغوات وكان من فرسان تغلب لمشاهير وأبطالها المغاوير وكانت أمهُ آمة لهمام بن ثمرَّة ولدتهُ فى سنة شديدة فمرَّ بها همام حين وضعتهُ وهى تقول للقابلة أقتليهِ واخفى خبره ولا تبقيهِ فقال لها ويحك لماذا تقتلين ولدك وهو قطعة من كبدك فتنهدت من فوادٍ موجوع وقالت أنى أخالف عليهِ الجوع فأستبقاهُ وأمر لها بجملٍ ذلول وناقةٍ حلوب ونشأ الغلام حتى بلغ فكان فارسًا من الفرسان المعدودين فى ربيعة ودخل مع قومِه بنى تغلب فى الحروب. فلما كان يوم واردات خرج همام بن مرة يسقى الناس اللبن فراهُ ناشرة فقصد إليهِ فقتلهُ فقالت أم ناشرة فى ذلك

أَلاَ ضـيَّع الايتـام طعنـة ناشـره ... أَناشـرَ لا زالـت يمينـك وأنـره

قتلـت رئيس النـاس بعـد رئيسيهم ... كليـبٍ ولم تـشكر وإنـى لـشاكره

وعظمت مصيبة همام فى بنى ذهل فحمل عباد الجهم اليشكرى على ناشرة فقتلهُ بين الصفين وكان بنى يشكر معتزلين الحرب فحمل المهلهل على اليشكرى فقتلهُ وتجالد الحيَّان إلى المساء ثم افترقوا وانصرف المهلهل يقول:

لمـا نعـى النـاعى كليبًـا أظلمـت ... شمـس النهـار فمـا تريـد طلوعـا

قتلـوا كليبًـا ثـم قـالوا ارتعـوا ... كـذبوا لقـد منعـوا الجيـاد رتوعـا

كلًـا وانـصابٍ لنـا عاديَّـةٍ ... معبـودٍ قـد قُطِعـت تقطيعـا

حتـى أبيـد قبيلـةَ وقبيلـةً ... وقبيلـةً وقبيلـتين جميعـا

وتـذوق حنفـأ آل بكـر كلـها ... ونهـدَّ منهـا سمكهـا المرفوعـا

حتـى تـرى أوصـالهم وجماجمًـا ... مـنهم عليهـا الخامعـات وقوعـا

وتـرى سـباع الطـير تنقـر أعينًـا ... وتجـرُ أعـضآء لهـم ضـلوعا
والمـشرفية لا تعـرِّج عـنهمُ ... ضـرباً يقـد مغـافرًا ودروعـا
والخيـل تقـتحم الغبـار عوابـسًا ... يـوم الكريهـة مـا يـردن رجوعـا

ومرَّ المهلهل فى طريقه بهمام بن مرَّة وهو قتيلٌ وكان صهرهُ ورفيقهُ ونديمهُ وصديقهُ فارتجع لهُ وأطرق مفكرًا وبكى وبقى متحيرًا ثم قال والله ما قتل فى وائل بعد كليب سيِّدٌ ولا مولى أعزُّ على منك ولا أغلى. والله لا تجتمع وأيل بعد كما على صلاح ولا خير ولا نجاح وقتل فى ذلك اليوم عمرو بن السدوس الذُهلى سيد بنى ذهل عثرت بهِ فرسهُ فأدركهُ الماروت بن عمرو التغلبى وطعنهُ فقتلهُ وقتل المهلهل الشعثمين ابنى معوية وكانا من سادات بنى ذهل وفرسانهم وأسر ثعلبة بن عوف والمرقش الأكبر وهو عمرو بن سعد بن مالك فقتل ثعلبة وأطلق المرقش فطلب المرقش بدم ثعلبة حتى قتل رجلًا من بنى تغلب يقال لهُ عمرو بن عوف وقتل ذلك اليوم الحارث بن مرة أخو جساس وأصاب المهلهل منهم جماعة بين أسير وقتيل. فخمد بعض ما عنده من الغليل. وقال قصيدةً يذكر فيها أخاه كليبًا وغدر بنى شيبان ويحرِّض قومهُ على طلب دم كليب وكانت العرب تسمى هذه القصيدة بالداهية وكانوا يتناشدونها إذا أرادوا حربًا أو محالفةً أو ضرب قداحٍ وأرادوا إنشادها اغتسلوا لها وهى القصيدة التى يقول فى مطلعها:

جـارت بنـى بكـر ولم يعـدلوا ... والمـرءُ قـد يعـرف قـصد الطريـق

وهى من جملة القصائد المعروفة بالأسابيع السبع وقد أثبتناها بتمامها مع غيرها من الأشعار النفيسة فى هذا الكتاب فى باب المنتقيات فلا حاجة إلى تكرارها ولما بلغ جساس بن مرةً هذه القصيدة أنشد يقول:

أنَّـا علـى مـا كـان مـن حـادثٍ ... لم نبـدأ القـوم بـذات العقـوق
قـد جرَّبـت ارماحنـا ... بـالطعن إذ جـاروا وحـز الحلـوق
لم يـنههم ذلـك عـن بغـيهم ... يومًـا لـوم يعترفـوا بـالحقوق

وأســـعروا للحـــرب نبرانهـــا ... للظلـــم فينـــا بابًـــا والفـــسوق
ألـــيس مـــن أردى كليبًـــا لمـــن ... دون كليـــب مـــنكمُ بـــالمطيق
مـــن شـــرع العـــدوان فـــى وائـــلٍ ... اقـــترف الظلـــمَ وضـــنك المـــضيق
بـــدلتُم بـــالظلم فـــى قـــومكم ... وكنـــتم مثـــل العـــدوّ الحنيـــق
والظلـــم حـــوضٌ لـــيس يـــسقى بـــهِ ... ذو منعـــةٍ فـــى كـــل أمـــرٍ يطيـــق
فـــإن أبيـــتم فأركبوهـــا بمـــا ... فيهـــا مـــن الفتنـــة ذات الـــبروق

ولما قتل المهلهل بنى بكر يوم واردات حميت لذلك قبايل وائل وأسخطهم ما بلغهم من قول المهلهل وتولى أمرهم حينئذ الحرث بن همام بن مرَّة وكان شجاعًا كريمًا ونهض سعد بن مالك بن ضبيعة جد طرفة بن العبد الشاعر وكان من فرسان ربيعة وجعل يحرض من اعتزل من قبائل بكر حتى اجتمعوا على حرب تغلب إلا الحارث بن عباد فإنه لم يزل معتزلًا بقومِه وأهل بيتهِ فأقبل سعد بن مالك يحرّضه على حرب تغلب فلم يجبهُ الحارث إلى ذلك ولبث معازلًا بقومهِ عن حرب التغلبيين واتفق بعد ذلك أن أبلًا للحارث ضلت من المراعى فخرج أبنهُ بجير فى طلبها وكانت أمهُ ابنة ربيعة بن مرة أخت كليب والمهلهل وكان المهلهل يومئذٍ قد خرج فى كتيبة من تغلب يطلب غرة من بنى بكر بن وائل فصادف بجيرًا فى بعض الطريق فصاح بأصحابه فأخذوا الغلام وأتوهُ بهِ ولم يكن خالهُ المهلهل رآهُ قبل ذلك لأنهُ ولد بعد قتل خالهِ كليب فلما رآهُ أعجبهُ ما رأى من جماله وهيئتهِ فقال لهُ من أنت يا غلام قال أن بجير بن الحارث بن عباد قال فمن أمك قال أمُّ الأغرّ بنت ربيعة بن مرة قال فمن خالك قال مهلهل بن ربيعة سيد بنى تغلب فأهوى إليه بالرمح فقال الغلام لماذا تقتلنى ولا ذنب لى وقد اعتزل أبى حربكم وكفَّ يدهُ فى من أطاعهُ من قومِه وكان مع المهلهل أمرءُ القيس بن أبان بن زهير بن جشم وهو فارس تغلب وشاعرها بعد المهلهل فقال ويحك يا مهلهل أتريد أن نهاك نفسك وقومك وتعين أعداءك بنى شيبان بالحارث بن عباد وقد علمت مكانهُ فى نزار وبطشهُ فى الحرب وطاعة قومه لهُ وهو لم يتعرض لنا بسوء فخلّ سبيل الغلام فقال المهلهل يا ابن أبان

إذا لم أقتل ابن الحارث فمن أقتل والله لا تركتهُ أبدًا علينا وعليهم الصبر وعلى نساينا ونسايهم البكاء ثم قام لجبير بن الحارث فضرب عنقهُ وأخذ رأسهُ فعلهُ على ناقتهِ ومضت الناقة حتى أتت أهلها فلما رآها الحارث بن عباد ورأس مجير معلقٌ بها عرف قاتلهُ فقال نفسى الفداء لقتيل بين قومهِ واجتمع إليه قومهُ وخرجت النساء صاحاتِ فاسكتهنَّ الحارث وقال خير مولودٍ فى وايل من أصلح أمرها وكفَّ حربها وحبس دماءَها وكان الحارث سيدًا شريفًا حليمًا وقورًا كريمًا شديد الأس والنجدة فأراد أن يصلح عشيرته بدم ولده حتى بلغهُ أن المهلهل لما قتل بجيرًا قال بشسع نعل كليب فغضب الحارث وأخذتهُ حميَّةُ الجاهلية وبلغ ذلك قومهُ فطرقوه ليلًا على خيولهم مستلئمين للحرب وقالوا أرضيت أن يكون ولدك بشسع نعل كليب وهو ليس بدون كليب وأنت سيد ربيعة وفارس نزار فقال لا تعجلوا على فقد يأتى الحديث عن غير أهلهِ وأرسل إلى مهلهل يقول إ، كنت قتلت بجيرًا بخاله كليب وطابت نفسك بثارك وقطعت الحرب عن بنى عمك فما أرضانى بذلك وأطيب نفسى بهِ ونعم القتيل من أرضاك وأصلح أمر وائل فأرسل إليه المهلهل إنما ولدك بشسع نعل كليب فأصنع ما بدالك فلما انتهى ذلك إلى الحارث قام بهِ الغضب وكانت الجارية حينئذ قد سرحت بابلهِ فقال ويحك ردى جمالك فما لى اليوم من حملِ فذهبت مثلًا ونادى فى قومهِ بالحرب وإنشأ وتميل:

كل شيء مصيرهُ للزوالِ ... غير ربى وصالح الأعمالِ
وترى الناس ينظرون جميعًا ... ليس فيهم لذاك بعض احتيالِ
قل لأم الأغرّ تبكى بجيرًا ... حِيلَ بن الرجال والأموال
ولعمرى لابكينَّ بجيرًا ... ما أتى الماءُ من رؤوس الجبال
لهف نفسى على مُجيرٍ إذا ما ... جالت الخيل يوم حرب عضال
وتساقى الكماة سمًا نقيعًا ... وبدا البيض من قباب الحجال
وسعت كل حرَّة الوجه ندعو ... بالبكرِ غرَّاءَ كالتمثال

يـا بجـير الخـيرات لا صـلحَ حتـى ... نمـلأَ البيـد مـن رؤوس الرجـال

وتقـرَّ العيـون بعـد بكاهـا ... حين تسقى الدماء صدور العوالي

أصـبحت وايـلٌ تعـجُ مـن الحـر ... بِ عجـيج الجمـال بالأثقـال

لم أكـن مـن جناتهـا عَلِـمَ الله ... وأنـى لحرّهـا اليـوم صـال

قـد تجنبـت وايلًـا كـى يفيقـوا ... فأبـت تغلـب علـى اعتزالـي

وأشـابوا ذوءابتـى بجـبيرٍ ... قتلـوهُ ظلمًـا بغـير قتـال

قتلـوهُ بشـسع نعـل كليـبٍ ... أن قتـل الكـريم بالشـسع غـال

بـا بنـى تغلـب خـذوا الحـذر أنَّـا ... قـد شـربنا بكـأس مـوتٍ زلال

يـا بنـى تغلـبٍ قتلـتم قتيلًـا ... مـا سمعنـا بمثلـهِ فـى الخـوالي

قرَّبـا مـربط النعامـة منـى ... لقحـت حـرب وايـلٍ عـن حيـال

قرَّبـا مـربط النعامـة مـني ... لـيس قـولى يـراد لكـن فعـالى

قرَّبـا مـربط النعامـة مـني ... جـدَّ نـوح النـساء بـالأعوال

قرَّبـا مـربط النعامـة منـى ... شـاب رأسـى وانكرتنـى القـوالي

قرَّبـا مـربط النعامـة مـني ... للـسرى والغـدو والآصـال

قرَّبـا مـربط النعامـة مـني ... طـال ليلـى علـى الليـالى الطـوال

قرَّبـا مـربط النعامـة مـني ... لاعتنـاق الأبطـال بالأبطـال

قرَّبـا مـربط النعامـة مـني ... واعتـدلا عـن مقالـة الجُهَّـال

قرَّبـا مـربط النعامـة مـني ... لـيس قلبـى عـن القتـال بـسال

قرَّبـا مـربط النعامـة مـني ... كلمـا هـب ريـح ذيـل الـشمال

قرَّبـا مـربط النعامـة مـني ... لـبجير مفكـك الأغـلال

قرَّبـا مـربط النعامـة مـني ... لكـريم متـوَّج بالجمـال

قرَّبـــا مـــربط النعامـــة مـــني ... لا تبيـــع الرجـــال بيـــع النعـــال
قرَّبـــا مـــربط النعامـــة مـــني ... لـــبجير فـــداهُ عمـــى وخـــالي
قرَّباهـــا لحـــى تغلـــب شوســـاَ ... لاعتنـــاق الكمـــاة يـــوم القتـــال
قرَّباهـــا وقرَّبـــا لأمتـــى در ... عًـــا دلاسًـــا تـــردُّ حـــدَّ النبـــال
قّرباهـــا بمرهفـــات حـــدادٍ ... لقـــراع الأبطـــال يـــوم النـــزال
رُبَّ جـــيشٍ لقيتـــهُ يمطـــر المـــو ... تَ علـــى هيكـــلٍ خفيـــف الجـــلال
ســـائلوا كـــدة الكـــرام وبكـــرًا ... وأســـألوا مـــذحجًا وحـــى هـــلال
إذا أتونـــا بعـــسكرٍ ذى زهـــاءِ ... مكفهـــرّ الأذى شـــديد المـــصال
فقرينـــاهُ حـــين رام قرانـــا ... كل ماضى الذباب عضب الصقال

وهى طويلة اقتصرنا منها على هذه الأبيات فأجابهُ المهلهل يقول:

هـــل عرفـــت الغـــداة مـــن اطـــلالِ ... رهـــن ريـــح وديمـــةٍ مهطـــالِ
يـــستبين الحلـــيم فيهـــا رســـومًا ... راســـاتٍ كـــصنعة العمِّـــال
قـــد رآهـــا وأهلـــها أقـــل صـــدقٍ ... لا يريـــدون نيَّـــة الارتحـــال
بـــالقومى للوعـــة البلبـــال ... ولقتـــل الكمـــاة والأبطـــال
ولعـــين تَبـــادَرَ الـــدمع منهـــا ... لكليـــب إذ فأفهـــا بانهمـــال
لكليـــب إذ الريـــاح عليـــهِ ... نافـــسات الـــتراب بالأذيـــال
أننـــى زايـــرٌ جموعًـــا لبكـــرِ ... بيـــنهم حـــارثٌ يريـــد نـــضالي
قـــد شـــفيت الغليـــل مـــن ال بكـــرٍ ... ال شـــيبان بـــين عـــمٍ وخـــال
كيـــف صـــبرى وقـــد قتلـــتم كليبـــا ... وشـــقيقتم بقتلـــهِ فـــى الخـــوال
فعمـــرى لأقـــتُلَنْ بكليـــبٍ ... كـــل فيـــلٍ يُـــسمَى مـــن الأفيـــال
ولعمـــرى لقـــد وطيـــت بنـــى بكـــرِ ... بمـــا قـــد جَنَـــوهُ وطـــيءَ النعـــال

لم أَدَعْ غـــير أكلـــبٍ ونـــسآءِ ... وإمـــاء حواطـــبٍ وعيـــال
فأشـــربوا مـــا وردتم اليـــوم منـــا ... وأصـدروا خاسـرين عـن شـرَّحال
زعـــم القـــوم أننـــا جـــار ســـوء ... كـــذبوا القـــوم عنـــدنا فـــى المقـــال
لم يـــرَ النـــاس مثلنـــا يـــوم ســـرنا ... نـــسلب الملـــك بالرمـــاح الطـــوال
يـــوم ســـرنا إلى قبائـــل عـــوف ... مجمـــوع زهآوهـــا كالجبـــال
بيـــنهم مالـــكٌ وعمـــرٌو وعـــوفٌ ... وعقيـــلٌ وصـــالح بـــن هـــلال
لم يَقُـــم ســـيف حـــارثٍ بقتـــال ... أســـلم الوالـــدات فـــى الأثقـــال
صـــدق الجـــار أننـــا قـــد قتلنـــا ... بقبـــال النعـــال وهـــط الرجـــال
لا تُمـــلَّ القتـــال يـــا ابـــن عبـــادِ ... صـــائر الـــنفس أننـــى غـــير ســـال
يـــا خليلـــى فرُبـــا اليـــوم مـــني ... كـــل صـــورٍ وادهـــم حهَّـــال
قرَّبـــا مـــربط المـــشهر مـــني ... لكليـــب الـــذى أشـــاب فـــذالي
قرَّبـــا مـــربط المـــشهر مـــني ... واســـألانى ولا تطـــيلا ســـؤالي
قرَّبـــا مـــربط المـــشهر مـــني ... ســـوف تبـــدو لنـــا ذوات الجحـــال
قرَّبـــا مـــربط المـــشهر مـــني ... أن قـــولى مطـــابقٌ لفعـــالي
قرَّبـــا مـــربط المـــشهر مـــني ... لكليـــب فـــداهُ عمـــى وخـــالي
قرَّبـــا مـــربط المـــشهر مـــني ... لاعتنـــاق الكمـــاة والأبطـــال
قرَّبـــا مـــربط المـــشهر مـــني ... ســـوف أصـــلى نـــيران آل بـــلال
قرَّبـــا مـــربط المـــشهر مـــني ... أن تلاقـــت رجـــالهم ورجـــالي
قرَّبـــا مـــربط المـــشهر مـــني ... طـــال ليلـــى واقتـــصرت عـــذالي
قرَّبـــا مـــربط المـــشهر مـــني ... يـــالبكرٍ وأيـــن مـــنكم وصـــالي
قرَّبـــا مـــربط المـــشهر مـــني ... لنـــضالكٍ إذا أرادوا نـــضال
قرَّبـــا مـــربط المـــشهر مـــني ... لقتيـــل ســـفتهُ ريـــح الـــشمال

قرَّبـــا مـــربط المـــشهر مـــني ... مـــع رمـــحٍ مثقَّـــفٍ عـــسال
قرَّبـــا مـــربط المـــشهر مـــني ... قرُبـــاهُ وقرَّبـــا رســـربالي
ثـــم قـــولا لكـــل كهـــلٍ ونـــاشٍ ... مـــن بنـــى بكـــر جـــردوا للقتـــال
وخـذوا حـذركم وشـدوا وجـدوا ... واصـــبروا للنـــزال بعـــد النـــزال
قـــد ملكنـــا كُـــم فكونـــوا عبيـــدًا ... مـــا لكـــم عـــن ملاكنـــا مـــن مجـــال
فلقـــد أصـــبحت جمـــائع بكـــرٍ ... مثـــل عـــادٍ إذ مزقـــت فـــى الرمـــال
يـــا كليبًـــا أجـــب لـــدعوة داعٍ ... موجـــع القلـــب دايـــم البلبـــال
ولقـد كنـت غـير نكـس لـدى ألبًـا ... مـــن ولا وإهـــنٍ ولا مكـــسال
قـــد ذبحنـــا الأطفـــال مـــن ال بكـــرٍ ... وقهرنـــا كمـــاتهم بالنـــضال
وكررنـــا علـــيهم وانثينـــا ... بـــسيوفٍ لقـــدُ فـــى الأوصـــال
أسـلموا كـل ذات بعـلٍ وأخـرى ... ذات خـدرٍ غـراءَ مثـل الهـلال
بـــالبكرٍ فأوعـــدوا مـــا أردتم ... واســـتطعتم فمـــا لـــذا مـــن زوال

وهى طويلةٌ أثبتنا منها هذه الأبيات وأما الحارث بن عباد فإنهُ دعا بفرسهِ النعامة وكانت أكرم خيل الجاهلية فجاءوهُ بها فجزَّ ناصيتها وقطع ذنبها وكان أول من فعل ذلك من العرب فاتخذتهُ العرب سنَّةً إذا قُتِل لأحدهم عزيزٌ وأراد أن يطلب ثارهُ ولما بلغْ المهلهل ذلك دعا بفرسهِ المشهر ففعل بهِ كذلك وارتحل الحارث ببنيهِ وبنى أخيهِ وقومهِ نضمهم إلى قبائل بكر فسرَّوا مهم سرورًا عظيمًا وقراهم الحارث بن همام بن مرَّة وكانت بكر قد قلَّدتهُ رياستها بعد أبيهِ وأشتهر بالفراسة والكرم والشعر ولما اجتمعت قبايل بكر أغارت بكتايب جمة وخرج المهلهل بن ربيعة بقومِه التغلبيين فالتقى الفريقان بعويرض واقتتلوا قتالًا شديدًا لم يَرَهُ أحدٌ قبل ذلك اليوم وصافح الحارث بن عباد القتال بنفسهِ وقتل من التغلبيين خلقًا كثيرًا فانهزموا وكان يومًا عظيمًا وهو أول يوم هزمت بكرٌ فيهِ تغلب وقصد الحارث مهلهلًا فصدّ عنهُ إلى غيرهِ وقتل كلٌ منهم جماعةً من أعدايه وقال الحارث بن عباد فى ذلك اليوم:

كانـــا غـــدوةً وبنـــى أبينـــا ... غـــداة الخيـــل تقـــرع بالـــذكورِ

ضراغم ساوَرَت فى الحى يحمي ... عليها كل ذى لبدٍ هصور
تجالد فى كتايب من عليٍّ ... بفتيانِ كأمثال الصقور
جَنب عوَيرضِ لما ألتقينا ... ونار الحرب ساطعة، السعير
فدانت تغلبٌ فى الحرب لما ... نزاتُ بداهياتٍ فى الأمور
فخامَ مهلهلٌ لما ألتقينا ... وعرَّد حين ملَّ من الهرير
فلو نشر المقابر عن كليبٍ ... لخبَّر فى الحفاظ بشرٌ زير
ولو قتلوا جميعًا فى بجيرٍ ... لكانوا فيهِ كالشيء اليسير
قتلنا الحى من جشم بن بكرٍ ... وأدبر جمعهم عند النفير
بشوس من بنى بكر عليهم ... دلاص السابغات من الحرير
وأهلكنا بنى غنمٍ جميعا ... مع القمقام ذى الشرف الخطير
وجالوا من سعير الحرب حتى ... بدت أقدام ربات الخدور
غداة اصبتهم شعواء تردى ... بأسدٍ ما تملُ من الزمير
حماة من بنى الريساء غرٌّ ... إليهم منتهى العافى الضرير
ومن ذهل بن شيبان وقيسٍ ... لبوث الحرب فى اليوم العسير
ومن أبناء تيم اللات مجدٌ ... توارثهُ الصغير عن الكبير
وعنزٌ فى الوغى لبَّات حربٍ ... كانَّ رماحهم أشطان بير
ومن عجل كتائبُ بالمذاكي ... ترى فى كل يوم قمطرير
يا كليب الخير لأصلح حتى ... أسكن اللحد فى التراب المهال
فلقد أصبحت جمائع بكرٍ ... مثل عادٍ إذا مزّقت فى الرمال
يا كليب أجب لدعوة داعٍ ... موجع القلب دايم البلبال
فلقد كنت غيرنكس لدى البأ ... سِ ولا واهن ولا مكسال

قـد ذبحنـا الأطفـال مـن ال بكـرٍ ... وقهرنـا كمـاتهم بالنـضال
وكررنـا علـيهمَ واثنينـا ... بـسيوفٍ تقـدُّ فـى الأوصـال
يـالبكرِ فاوعـدوا مـا أردتم ... واسـتطعتم فمـا لـذا مـن زوال

وهى طويلةٌ أثبتنا منها هذه الأبيات وأما الحارث بن عباد فإنهُ دعا بفرسهِ النعامة وكانت أكرم خيل الجاهلية فجاءوهُ بها فجزَّ ناصيتها وقطع ذنبها وكان أول من فعل ذلك من العرب فاتخذتهُ العرب سنَّةً إذا قُتِل لأحدهم عزيزٌ وأراد أن يطلب ثارهُ ولما بلغْ المهلهل ذلك دعا بفرسهِ المشهر ففعل بهِ كذلك وارتحل الحارث ببنيهِ وبنى أخيهِ وقومهِ نضمهم إلى قبائل بكر فسرَّوا مهم سرورًا عظيمًا وقراهم الحارث بن همام بن مرَّة وكانت بكر قد قلَّدتهُ رياستها بعد أبيهِ وأشتهر بالفراسة والكرم والشعر ولما اجتمعت قبايل بكر أغارت بكتايب جمة وخرج المهلهل بن ربيعة بقومِه التغلبيين فالتقى الفريقان بعويرض واقتتلوا قتالًا شديدًا لم يَرَهُ أحدٌ قبل ذلك اليوم وصافح الحارث بن عباد القتال بنفسهِ وقتل من التغلبيين خلقًا كثيرًا فانهزموا وكان يومًا عظيمًا وهو أول يوم هزمت بكرٌ فيهِ تغلب وقصد الحارث مهلهلًا فصدّ عنهُ إلى غيرهِ وقتل كلٌ منهم جماعةً من أعدايه وقال الحارث بن عباد فى ذلك اليوم:

كانـا غـدوةً وبنـى أبينـا ... غـداة الخيـل تقـرع بالـذكورِ
ضـراغم ساوَرَت فـى الحـى يحمـي ... عليهـا كـل ذى لبـدٍ هـصور
تجالـد فـى كتايـب مـن علـيَّ ... بفتيـانٍ كأمثـال الـصقور
جَنـب عـوَيرضِ لمـا ألتقينـا ... ونـار الحـرب سـاطعة، الـسعير
فـدانت تغلـبٌ فـى الحـرب لمـا ... نـزاتُ بـداهياتٍ فـى الأمـور
فخـامَ مهلـهلٌ لمـا ألتقينـا ... وعـرَّد حـين مـلَّ مـن الهرير
فلـو نـشر المقـابر عـن كليـبٍ ... لخبَّـر فـى الحفـاظ بـشرٌ زيـر
ولـو قتلـوا جميعًـا فـى بجـيرٍ ... لكـانوا فيـهِ كالـشيء اليـسير
قتلنـا الحـى مـن جـشم بـن بكـرٍ ... وأدبـر جمعهـم عنـد الـنفير

بشوس من بنى بكر عليهم ... دلاص السابغات من الحرير
وأهلكنا بنى غنمٍ جميعا ... مع القمقام ذى الشرف الخطير
وجالوا من سعير الحرب حتى ... بدت أقدام ربات الخدور
غداة اصبتهم شعواء تردى ... بأسدٍ ما تملُ من الزمير
حماة من بنى الريساء غرٌ ... إليهم منتهى العافى الضرير
ومن ذهل بن شيبان وقيسٍ ... لبوث الحرب فى اليوم العسير
ومن أبناء تيم اللات مجدٌ ... توارثهُ الصغير عن الكبير
وعنزٌ فى الوغى لبَّات حربٍ ... كأنَّ رماحهم أشطان بير
ومن عجلٍ كتاب كتائبُ بالمذاكي ... ترى فى كل يومٍ فمطرير
ومن أولاد يشكر كل شهمٍ ... طويل الياع كالقمر المنير
فما فى الناس حى مثل بكرٍ ... إذا افتخر المفاخر بالعشير

فأجابهُ المهلهل من ربيعة يقول:

اليلتنا بذى حسمٍ انيري ... إذا نتِ أنقضيتِ فلا تحوري
فإن يكُ بالذنايب طال ليلي ... فقد يبكى على الليل القصير
أرقمت وصاحبى بجنون شعبٍ ... لبرقٍ فى تهامة مستطير
ولو نشر المقابر عن كليبٍ ... لأخبر بالذنايب اى زير
ويوم الشعثمين لقرَّ عينًا ... وكيف لقاءُ من تحت القبور
على أنى تركت بواراتٍ ... مجيرًا فى دمٍ مثل العبير
وهمام بن مرَّة قد تركنا ... عليهِ القشعمان من النسور
هتكت بهِ بيوت بنى عباد ... وبعض القتل اشفى للصدور
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... إذا خاف المغار من المغير

على أن ليس عدلًا من كليب ... إذا طرد النسيم عن الجزور
على أن ليس عدلًا من كليب ... إذا ما ضيم جار المستجير
على أن ليس عدلًا من كليب ... إذا ضاقت رحيبات الصدور
على أن ليس عدلًا من كليب ... إذا خاف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلًا من كليب ... إذا طالت مقاساة الأمور
على أن ليس عدلًا من كليب ... إذا هبَّت رياح الزمهرير
على أن ليس عدلًا من كليب ... إذا وثب المثار على المثير
على أن ليس عدلًا من كليب ... إذا عجز الغنى عن الفقير
على أن ليس عدلًا من كليب ... إذا خرجت مخباة الخدور
على أن ليس عدلًا من كليب ... إذا هتف المثوب بالعشير
تسايلنى أميمة عن أبيها ... وما تدرى أميمة عن ضمير
فلا وأبى أميمة ما أبوها ... من النعم الموثَّل والجزور
ولكنَّا طعنَّا القوم طعنًا ... على الاثباج منهم والنحور
نكبُ القوم للأذقان صرعى ... ونأخذ بالترايب والصدور
فدى لبنى شقيق حين جاءُوا ... كأسد الغاب نلجب بالزئير
غداة كاننا وبنى ابينا ... بجنب عُنيزة ركنا ثبير
فلولا الريح اسمع من بحجر ... صليل البيض تقرع بالذكور
وكانوا قومنا فبغوا علينا ... فقد لاقاهُم لفح السعير
تظلُ الطير عاكفة عليهم ... كأنَّ الخيل تنضح بالعبير

وقال المهلهل أيضًا:

اثبتُ مرّة والسيوف شواهرٌ ... وصرفت مقدمها إلى همَّامِ

وبنـــو لجـــيم قـــد وطأنـــا وطـــأة ... بالخيـــل خارجـــة عـــن الأوهـــام

ورجعنـا نحـتنيءُ الفنـا فـى ضـمّر ... مثـــل الـــذئاب ســـريعة الاقـــدام

وسـقيت تـيم الـلات كاسًـا مـرةً ... كالنـــار شـــبَّ وقودهـــا بـــضرام

وبيـوت قـيس قـد وطأنـا وطـأةً ... فتركـــن قيـــسًا غـــير ذات مقـــام

ولقـــد قتلـــت الـــشعثمين ومالكًـــا ... وابـــن المـــسوَّر وابـــن ذات دوام

ولقـــد قتلـــت الـــشعثمين ومالكًـــا ... وابـــن المـــسوَّر وابـــن ذات دوام

ولقـد خبطـت بيـوت يـشكر خبطـةَ ... وأخوالنـــا وهُـــم بنـــى الأعمـــام

ليـــست براجعـــة لهـــم أيـــامهم ... حتـــى تـــزول شـــوامخ الأعـــلام

قتلـــوا كليبًـــا ثـــم قـــالوا ارتعـــوا ... كـــذبوا ورب الحـــل والإحـــرام

حتـــى تلـــفَ كتيبـــة بكتيبـــةٍ ... ويحـــل اصـــرامًا علـــى اصـــرام

وتقـــوم زبَّـــات الخـــدور حواســـرًا ... يمـــسحن عـــرض تمـــائمٍ الأيتـــام

حتـــى نـــرى غـــررًا تجـــر وجمـــة ... وعظـــام رؤوسٍ عـــشمت بعظـــام

حتـى يعـض الـشيخ مـن حـسراتهِ ... ممـــا يـــرى جزعًـــا علـــى الإبهـــام

ولقـد تركنـا الخيـل فـى عرصـاتها ... كـــالطير فـــوق معـــالم الأجـــرام

فقـــضين دَينًـــا كـــنَّ قـــد ضـــمنّهُ ... بعـــزائمٍ غلـــب الرقـــاب ســـوام

مـــن خيـــل تغلـــب عـــزةً وتكرمًـــا ... مثـــل الليـــوث بـــساحة الأنـــام

فأجابهُ الحارث بن عباد:

حـــى المنـــازل أقفـــرت بـــسهامِ ... وعفـــت معالمهـــا بجنـــب بـــرامِ

جـرت عليهـا الرامـسات ذيولهـا ... وســـجال كـــل مخلخـــلٍ ســـجَّام

أقـوت وقـد كانـت تحـل بحوّهـا ... حـــور المـــدامع مـــن ظبـــاءِ الـــشام

وبمعـــصمٍ عبـــلٍ وعينـــى جـــؤذر ... ومفلـــج حـــسنٍ وحـــسن قـــوام

وروادفٍ مثـــل النقـــا مجدولـــةٍ ... وبفـــاحمٍ جثـــل النبـــات ســـحام

تركتـك يـوم تعرضـت لـك بـاللوا ... دنفًـــا تعـــالج لوعـــة الأســـقام

أن الأراقـــم أصـــبحت مـــسئولة ... بقـــــرار لمـــــواطئ الأقـــــدام

تركـــت ظبـــاة ســـيوفنا ســـاداتهم ... مـــا بـــين مجنـــدلٍ وآخـــر دامـــي

لا تحـــسبن أنـــا هممـــت مجربنـــا ... أنَّـــا لـــدى الهيجـــا غـــير كـــرام

ولقـد علمـت وأنـت فينـا شـاهدٌ ... وســـيوفنا تفـــرى فـــروع الهـــام

أنـــا لتمنـــع بالطعـــان ديارنـــا ... والـضرب تحـسبهُ شـهاب ضـرام

فـوق الجيـاد شـوا خـصًا أبـصارها ... تعـــدو بكـــل مهنَّـــدٍ صـــمام

ضـــمنت لهـــا أرماحنـــا وســـيوفنا ... بهـــلاك تغلـــب آخـــر الأيـــام

وإذا الكـــرام تـــذاكرت أيامهـــا ... كنـــت علـــى الأيـــام غـــير كـــرام

فأسـئل لكنـدة حـين أقبـل جمعهـا ... حـول ابـن كبـشة وابـن أم قطـام

ملكـان قـد قـادا الجيـوش واثخنـا ... بالقتـــل كـــل متـــوَّجٍ قمقـــام

رجعـا وقـد نـسيا الـذى قـصدا لـهُ ... والخيـل تقـرع مثـل سـيل عـرام

وجـرى النعـام علـى الفـلاة جوافلًـا ... تبغـــى الرجـــال بـــواكر الأعظـــام

ووجـــدت ثـــم حلومنـــا عاديـــة ... وكـــان أعـــدانا بـــلا أحـــلام

أفبعـــد مقـــتلكم بجـــيرًا عنـــوةً ... ترجـــون ودًّا آخـــر الأيـــام

كلًـــا ورب الراقـــصات إلى منـــا ... كلًـــا ورب الحـــلّ والأحـــرام

حتـــى تقيـــدونا النفـــوس بقتلـــهِ ... وترومـــوا فـــى الـــشحناءِ كـــل مـــرام

وتجـــول ربَّـــات الخـــدود حواســـرًا ... يـــبكين كـــل مغـــادر ضـــرغام

ثم التقى القوم بعوَيرض مرةً أخرى فاقتتلوا قتالًا ومازالت رحى الحرب تعركهم بثفالها. وتدور عليهم بأثقالها حتى أقبل جيش الليل الاعتكار وشمَّر للهزيمة جند النهار وكان التغلبيون قد استظهروا على بنى بكر ومالوا عليهم

بالسيوف والرماح وهزموهم فى تلك البطاح وقد كثر فيهم القتل والجراح وكان المهلهل قد باشر بنفسه القتال وفعل فعالًا تعجز عنها صناديد الرجال وراح ظافرًا منصورًا بمن معهُ من الأبطال وجعل بعد ذلك بجرد لبنى بكر الفرسان والحجافل ويكمن لهم على الأمياءِ والماهل فلا يلقى شيخًا ولا صبيًا إلا قتلهُ ولا مالًا إلا اغتنمهُ ثم أنهُ خرج ذات يوم فى كتيبةٍ من قومهِ ومعهُ كنيفٌ بن حى وكان من أشراف تغلب وفرسانها فخرجا للغارة على بكر مجردين فمرًا بقومٍ من بنى تغلب يقال لهم بنو تيم فقال مهلهل اركبوا معنا يا بنى تيم لقتال بكر فكرهوا وقالوا ما كنا لنحارب من لم يحاربنا فقال مهلهل أما سُملتكم الحرب بعد والله ما كنا نظن إلا أنها شملت من فى المشرق والمغرب من بنى وايل فتقدم كنيف وقال لهم تنحوا عن منزلكم هذا فأنا نريد الغارة على القوم ونخاف أن أصبناهم أن يصيبوكم قالوا ما علينا من بأس إنما يطلبون من قتلهم فتركاهم ومضيا فى جيشهما حتى وقعا بحى من بكر ليلًا فأخذوا أموالهم وقتلوا رجالهم وأخذ مهلهل روس ساداتهم وأشرافهم فحملهم على ناقة لهُ تسمى الحَلَق ورجعا فى جوف الليل فطرحا الروس فى دار القوم المعتزلين من بنى تيم وبين بيوتهم فلما أصبحوا إذا الكلاب تجر الروس فعلموا أنها مكيدة المهلهل فخافوا واحتسبوا من عواقب الأمور وارتحلوا من وقتهم وانضموا بتغلب فلم يبق من بكر ولا تغلب قبيلة إلا شملتها الحرب.

قال ولما ألح المهلهل على بكر وأهلكهم أرسلوا إلى من باليمامة من بكر بن وايل يستخدمونهم فأمدوهم برجلٍ منهم يقال لهُ الفند بن سهل وكان شجاعًا لا يطاق فسار إلى بنى شيبان وقد انتخب من أشكاله وفرسانه سبعين فارسًا فأرسلوا إليهم يقولون اننا قد أمددناكم بألف فارس وسبعماية فارس فلما قدموا إذا هم سبعون تحت راية الفند بن سهل قالوا لهم فاين جماعتكم قال الفند أنا بألف فارس وأصحابى بسبعماية فارس.

قال وسمعت بنو تغلب بقدوم الفند فتأهَّبوا واستعدوا للقتال وتزايدوا فى الخيل والرجال والتقوا بالعقبة وعلى بنى تغلب مهلهل بن ربيعة وعلى بنى بكر الحارث بن همام بن مرة فلما ترآى الجمعان قال الحارث بن عباد للحارث بن همام هل تطيعنى فيما أشير به عليك قال نعم قال تعطون كل امرأة من نسايكم هراوةً وقربة ماءِ

وتجعلوا هذه خلفكم إذا اصطففتم للحرب وتحلقون رؤوسكم علامةً لهن فإذا جرح منكم رجلٌ عرفنهُ بتلك العلامة فأقبان عليه يسقينهُ ويأخذن بيده وإذا مررن بجريح من أعدايكم ضربنهُ بالخشب فقتلنهُ ففعل الحارث بن همام ما أمره به وانتشب القتال بين القوم. وتجالدوا بالسيوف صدر ذلك اليوم ثم جالت بكر على تغلب فاستهزموا لهم حتى استمكنوا منهم، فأطبقوا عليهم وأذاقوهم البلا ونظر الحارث بن عباد إلى فارسٍ من تغلب لا يدنومن كتيبة إلا مزَّقها فدعا بعمامة وشد حاجبيهِ ووثب بالنعامة على ذلك الفارس فلحنظنهُ وأتى بهِ إلى قومهِ وهو يقول شعرًا:

إنـــى أرى ذا جـــادٍ بـــاسٍ تخالـــهُ الـــبحير اذا تقاســـى

فهو بهِ الوفاءُ دون الناس

وكان ذلك الفارس هو المهلهل بن ربيعة إلاَّ أن الحارث لم يكن يعرفهُ لطول العهد بينهما وكان المهلهل ذا رأى ومكيدة فلما أيقن بالهلكة استنزل عن فرسه وتنكَّر وقصد شيخًا كبيرًا من ذهل بن شيبان يقال له عوف بن محلم وكان له نديمًا وصديقًا قبل وقوع الفتنة فجعل بدانيهِ حتى استجار بالخباءِ ومكر بالحارث بن عباد فقال لهُ هل أدلك على المهلهل فتقتلهُ وتؤمننى قال وكيف لى بذلك قال أعطى ضمينًا بالأمان حتى أدلك عليه قال أخترك لك ضمينًا من بكر ترضى به قال أريد عوف بن محام فقال الحارث أضمن له يا عوف فضمن وكانت العرب ترى الموت قبل نقض الذمة فلما أعطاهُ الحارث ذمته وأمانه قال أنا مهلهل بن ربيعة خدعتك عن نفسى والحرب خدعة فندم الحارث على إجارته لكنه لم يستطع أن يغدر بهِ لما اعطاه من الذمة فقال لهُ كافنى بما صنعت لك بعد جرمك العظيم قال بماذا قال دلنى على شريف من قومك أقتلهُ لولدى ابن اختك بجير الذى قتلتهُ ظلمًا وعد مانًا قال مهلهل أترضى بأمره القيس بن ابان قال الحارث ثكلتك أمك وما خير قومك من بعده

وقد رضيت بهِ فوق الرضى فقال مهلهل افترى صاحب الفرس الأشقر المتعمم بالعمامة المرا الذى يعطفها بيده كيف شاء قال نعم قال فإن ذلك امرء القيس بن أبان فقصده الحارث بن عباد فأحتضنهُ وأتى بهِ قومه فضرب عنقه.

قال مؤلفهُ وامرء القيس هذا هو الذى كان مع مهلهل يوم قتل بجيرًا ونهاه من قتلهِ وقال لين قتلتهُ ليقتلن بهِ الحارث كبش بى تغلب فكان هو المقتول ولما رجع المهلهل إلى قومهِ عطفوا على البكر بين وقاتلوا قتالًا شديدًا حتى كان آخر النهار فكانت الدايرة على تغلب فالتقاهُ نشاءُ الحى والصبيان ومن تخلف من الرجال عن الحرب يسئلونه عن ابايهم وإخوانهم فأبى أن يخبرهم ومضى المهلهل بعد ذلك بجماعة قومه نحو العراق منهزمًا وسارت بكر فى آثارهم يلحقونهم من منزل إلى منزل حتى لحقوهم بأطراف الجزيرة وما يليها من البلاد فقتلوا منهم وأسروا ثم رجعوا عنهم بعد قتل شنيع.

قال وكان قد انتشر حديث المهلهل فى امرءِ القيس بن أبان إلى الحارث بن عباد وشاع فى قبايل العرب فغضب قرابة امرءِ القيس المذكور وقالوا لابد من قتل المهلهل فإذا قتلناه استرحنا منهُ فاجتمعت جموع وايل وأرادوا الوثوب عليهِ فقامت فرقة من تغلب وأكابرها وأهل الرأى فمنعوهم وقالوا لا يقتل المهلهل ومنا عين تطرف وبلغ المهلهل ذلك فأنف وغضب وعز على فراقهم فاجتمعوا إليه وقالوا ما كنت تفارق عشيرتك إلاَّ منهؤلاء الأوغاد ونحن بين يديك فمرنا فيهم بما شيت فقال والله لا أقيم فى تغلب بعد أن حدَّث رجلٌ منها نفسه بقتلى فارق المهلهل قومه وسار بماله وإخوته وأهله ولحق بأرض اليمن باستجار بمذحج وسكن فى سعد العشيرة فمكث فيهم ما شاء الله تعالى ثم جاءَ إليهِ رجالٌ من مذحج وإشرافهم فخطبوا إليه ابنته سليمى فأبى عليهم وامتنع فقالوا لهُ يا مهلهل أنك لترغب بابنتك عنا حتى كأنك خير منا فخجل من كلامهم وزوجها برجلٍ منهم وقال هى لك زوجةً فلست بخير منك فى بلدك ثم نادى بالرحيل فى أهله وحشمه وسار من يومه حتى لحق بالنمر بن قاسط وهم أحلافه وأنصاره وأقام عندهم بنى بكر ورجعوا إلى بلادهم وتركوا الفتنة ولم يحضر مهلهل صلحهم ثم اشتقاق إلى أهله وقومه ولجت عليه أبنتهُ سليمى بالمسير حتى قرب من قبر أخيه كليب وكانت عليه قبَّة رفيعة فلما رآهُ خنقتهُ العبرة وهطلت دموعه على خديه من شدة الحزن وكان تحتهُ بغل لهُ نجيب فلما رأى البغل القبر فى غلس الصبح نفر منهُ هاربًا فوثب عنهُ المهلهل وضرب عرقوبيه بالسيف فعقرهُ وقال:

رمـــــاك الله مـــــن بغـــــلِ ... يمـــــشحوذ مـــــن النبـــــلِ
أمـــــا تبلغنـــــى أهلـــــك ... أو تبلغنـــــى أهلـــــي
أكـــــل الـــــدهر مركـــــوبٌ ... مـــــن النكبـــــاء والعـــــزل
وقـــــد قلـــــت ولم أعـــــدل ... كلامًـــــا غـــــير ذى هـــــزل
ألا أبلـــــغ بنـــــى بكـــــرِ ... رجالًـــــا مـــــن بنـــــى ذهـــــل
وأبلـــــغ ســـــالفًا حلـــــوا ... إلى قارعـــــة النخـــــل
بـــــدائم قـــــومكم بالغـــــد ... رِ والعـــــدوان والقتـــــل
قتلـــــتم ســـــيد النـــــاس ... ومـــــن لـــــيس بـــــذى مثـــــل
وقلـــــتم كفـــــوهُ رجـــــلٌ ... ولـــــيس الـــــرأس كالرجـــــل
ولـــــيس الرجـــــل الماجـــــد ... مثـــــل الرجـــــل النـــــذل
فتـــــى كـــــان كـــــالفٍ مـــــن ... ذوى الأنعـــــام والفـــــضل
لقـــــد جيئـــــتم بهـــــا دهمـــــا ... ءَ كالحيـــــة فـــــى الجـــــذل
وقـــــد جبـــــتم بهـــــا شـــــعوا ... أشـــــابة مفـــــرق الطفـــــل
وقـــــد كنـــــت أخـــــا لهـــــوٍ ... فأصـــــبحت أخـــــا شـــــغل
إلا ياعـــــــادلى اقـــــــصر ... حـــــاك الله مـــــن عـــــذل
بأنَّـــــا تغلـــــب الغالبـــــا ... ءُ نعـــــاو كـــــل ذى فـــــضل
رجـــــالٌ لـــــيس فـــــى حَـــــرَجٍ ... لهـــــم مثـــــلٌ ولا شـــــكل
هـــــا فلـــــم جـــــساسٌ ... لهـــــم مـــــن شـــــيء الفعـــــلِ
ســـــأجزى رهـــــط جـــــاسٍ ... كحـــــذو النعـــــل بالنعـــــلِ

قال وسار المهلهل فنزل فى قومهِ وبلاده زمانًا غير أنه مرصد للحرب لا يهم بصلح ولا يشرب خمرًا ولا يحل لامته ولا سلاحه ولا يضرب فداحا ولا يقرب نكاحًا ولا يشم أرواحًا ولا يلهو بلهو ولا يغتسل باءِ حتى كان جليسهُ يتأَذى منهُ

من رايحة صدا الحديد فلما كان ذات يوم دخل عليهِ رجلًا من بنى تغلب يقال لهُ ربيعة بن الطفيل وكان له أخًا ونديمًا فلما رأى ما بهِ قال أقسمت عليك أيها الرجل لتغتسلن بالماء البارد ولتبلن ذوليبك بالطيب فقال مهلهل هيهات هيهات يا ابن الطفيل هبلتنى إذًا بينى وكيف باليمين التى آليت كلا أو قضى من بكر وربى قال ربيعة على رسلك أيها الرجل فلا ضير عليك أما غلاءك فينهض البيض وهى مسدولة على عاتقك والآخر يصب الماء وأما أنا فإبل مفارقك بالطيب فقال كهلهل أما أنا فلا أمرك ولا أنهاك أنت من ذوى فلما أهوى الغلام بيده إلى البيضة لينهضها إذ هو بشى يدبّ فى البيضة وأحس مهلهل بذلك فقال يا غلام ردوها فبتر به كليب لا تزول من مكانها حتى أفنى بكرًا أو أذوق الموت ولكن أمدد يدك إلى ناحية الجريان حتى تنال ظهرى فأنى أحس شيئًا قد أذانى فأهوَى الغلام بيدهِ فإذا شيء فقبض عليه فأخرجهُ فإذا هو قبضة قمل بدرت من تحل البيضة متراكمة فلما نظر إليها مهلهل قال وابيك يا ربيعة ما نأت نارى بعد أو يرجع هذا القمل عقارب وأفاعى ثم تأوه وزفر وتذكر كليبًا فأنشد يقول:

أن فى الصدر من كليب وداعٍ ... هجساتٍ نكأن منهُ الجراحا
أنكرتنى حليلتى إذ رأتني ... كأسف اللون لا أطبق المزاحا
ولقد كنت إذا أرجل رأسي ... ما أبالى الإفساد والإصلاحا
ليس من عاش فى الحيوة شقيًا ... كآسف اللون هايمًا ملتاحا
يا خيلى ناديا لى كليبًا ... وأعلما أنهُ ملاقِ كفاحا
يا خيلى ناديا لى كليبًا ... ثم قولا لهُ نعمت صباحا
يا خيلى ناديا لى كليبًا ... قبل أن تبصر العيون الصباحا
ترك الدار ضيفنا وتولى ... عذر الله ضيفنا يوم راحا
ذهب الدهر بالسماحة منا ... يا ذا الدهر كيف راضى الجماحا
ويح أمى وويحها لتقيلٍ ... من بنى تغلب وويحًا وواحا

يـــا قتيلًـــا نمـــاهُ فـــرع كـــريم ... فنـــدهُ قـــد أشـــاب منـــى المـــساحا
كيـف أسـلو عـن البكـا وقـومي ... قـد تفـانوا فكيـف أرجـو الفلاحـا

وبلغت هذه الأبيات سادات بكر فأجابهُ الفند بن سهل يقول:

ابـــن ليلـــى وأيـــن ليلـــى وليلـــى ... أعرضـــت قبلنـــا رجالًـــا صـــحاحا
لا تـــرى عاشـــقًا تعلَّـــق ليلـــى ... ولا يلاقـــى الممـــات منهـــا رواحـــا
هـــاج لى ذكرهـــا حمـــام هـــدوٌ ... يـذكر الألـف فـى العـصون فتاحـا
لقيـــت تغلـــب كهلـــة عـــاد ... إذا أتـاهم هـول العـذاب صـباحا
ونينـا عـن حربنـا تغلـب الـشوم ... فمـــا عافـــت الـــبلاء المتاحـــا
دون أن أبـــصرت خيولًـــا لبكـــرٍ ... وســـيوفًا هنديـــةً ورماحـــا
فقتلنـــا بـــواراتٍ رجالًـــا ... إذ بـــدا كـــاتم الـــضمير فباحـــا
ورجـــت تغلـــب تعيـــد كليبًـــا ... فأطحنـــا ســـراتهم حيـــث طاحـــا
قـــد تركـــت نـــساءهم معـــولات ... معلنـــات مـــع البكـــا بالنواحـــا
وتـــرى الزيـــر يمجـــج القـــول فينـــا ... بعـــد مـــا صـــار مفـــردًا مـــستباحا

فلما بلغ مهلهلًا وروسا تغلب هذا الشعر أنفوا ونقضوا الصلح وجمع المهلهل فرسان تغلب وأغار بهم على بنى بكر فالتقوا ضبيعة جد عمرو بن كلثوم التغلبى الشاعر ثم أن مهلالًا بعد ذلك وإرسل إلى بكر يطلب جساسًا قاتل كليب وكانت أخوال جساس بالشام فلحق بهم فى نقرٍ قليلٍ من قومهِ ولما بلغ المهلهل ذلك أرسل فى طلبهِ ثلثين نفرًا فأدركوهُ فى الطريق واقتتلوا فلم يسلم منالفريقين إلا قليلٌ وأنجرح جساس رحًا شديدًا فمات منه وقيل لم يمت من ذلك لكن قتلهُ الهجرس بن كليب بن ربيعة وذلك أن امرأة كليب الجليلة أخت جساس كانت حاملًا لما قتل كليب فولدت غلامًا سمته الهجرس وكانت حينئذ قد لحقت بقومها فنشا الغلام مع خوالهِ بنى مرة وأولادهم وكان خالهُ جساس يحسن العلام على ذلك ما شاء الله إلى أن وقعت فتنه بينهُ وبين رجلى من آل مرة فقال له الرجل ما أراك نهدا حتى الحقك

بأبيك وكان جساس وقال له أنت ولدى وابن أختى وقد زوجتك ابنتى رغبةً منى فيك وقد علمت ما كان بينى وبين قومك من الفتنة ثم اصطلحا وأريد أن تنطلق معى إليهم فتدخل فيما دخل فحمل عليه الهجرس وهو يقول ومهرى وأذنيهِ ورمحى وطَرَ فيهِ لا يدع المرءُ قاتل أبيهِ وهو ينظر إليه ثم طعنهُ بالرمح فدوَّ صلبهُ وركض بجواده يريد عمهُ المهلهل وهو يقول:

تبـيَّن خليلـى ابـن صـارت ديارنـا وأيـن لنـا مـن آل مـرَّة ناصـرُ

وقـد بجبر العظـم الكسير فيستوي ويولـد بعـد المـرءِ يـا سُـعدَ ثـائرُ

ففرح بهِ عمهُ ولاطفهُ وقرَّبهُ وأعطاهُ رياسة قومهِ مكان ثم انبعثت الحرب بين الفريقين وتواعدوا القتال واجتمعت قبايل النمر بن ساقط مع بنى تغلب وسيدهم سالم بن يزيد اليمرى فأقتتل القوم فتالًا شديدًا وكثرت القتلى بينهم وكانت لهربة على بنى تغلب والنمر بن ساقط وقتل فى ذلك اليوم الهجرس بن كليب ومضى المهلهل فقدَّمهم بين يديهِ فى أول النهار وتخلَّف بعبدين لهُ يريد غرَّة عوف بن مالك ليقتلهُ فلما لم يصادف غرَّة له سار فى أثر أهلهِ حتى إذا كان فى بعض الفلوات نزل فى ظل شجرة فنام وكان العبدان قد ضجرا منهُ لطول بلابهِ لانهِ كان قد غزا مهما غلامين حتى وخطهما الشيب ولم يزل على عزمه فوثبا عليهِ وأخذا بيديه فانتبه وقال ما بالكما قالا نذيقك ما أذقت العرب قال إن لم يكن بدٌّ من ذلك فإذا أتيما أبنتى فخصاهما عنى بالسلام وقولا لهما هذا البيت:

مـن مُبلِـغ الأقـوام أن مهلـهلاً لله درُّكمـا ورُ أبيكمـا

قالا نعم ثم طعنهُ أحدهما فقال المهلهل ثكلتك أمك لو أخذت البيضة عن رأسى لكفاك أخذها دون أن تضع يدك فى سيدك فأخذا البيضة فامتنعت عليها بأهلهما يبكيان ويقولان وامهلاهلاه وأسيدنا ولفارس العرب فلما سمعتهما بننهُ سلمى وهى امرأة الهجرس بن كليب قالت ما وراءَ كما فقالا مات أبوك المهلهل وتركنا عليه على القوم قالت فهل أوصاكما بشيء قالا لا والله غير أننا سمعناهُ وهو يجود بنفسهِ يقول:

مـــن مُبلـــغ الأقـــوام أن مهلـــهلاَ	لله درُّكمـــــــا ودرٌ أبيكمـــــــا

ففكرت سليمى ومن حولها فلم يجدوا مخرجًا لذلك وغذا ابنته الصغيرة تبكى ولقول واتكلاهُ قتيلٌ ورب الكعبة أوثقوا العبدين فأوثقهما فنبانٌ من تغلب فاختلط كلامها فقالت أتدرون ما اراد أبى قالوا لا فماذا قال يا ابنة تغلب قالت ما أراد إلا أن يقول

مـــن مبلـــغ الأقـــوام أن مهلـــهلاً ضـــحى قتيلًـــا فـــى المـــلاة مجـــدً

لله درُّكمـــــــا ردر أبويكمـــــــا لا يـــبرح العيـــدان حتـــى يقـــتلا

فأمروا بالعبدين فضربت أعناقهما ورجع بنو تغلب إلى أرضهم واحتسب بكر وتغلب فى القتلى وأحطوا عن كليب عشر دياتٍ وارتفع السيف من بينهم وطالت المنابح على المهلهل وكثرت المرائى وأعولت عليه تغلب كما يليق بمثلهِ وخمدت بعدهُ نار الحرب بعد اشتعالها بينهم مدة أربعين سنة وقام كل فريقٍ منهم فى أرشهِ إلى ما شاء الله انتهى